وَقْفَةٌ عِنْدَ الْآيَةِ ٨٩ مِنْ سورَةِ النَّحْلِ

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾

أ. د. علي صالح حسن المحمداوي

كليّة التربية العلوم الإنسانيّة - جامعة البصرة

فحوى البحث

عرض السيد الباحث بتركيز وإسهاب لمفهوم الآية [٨٩] من سورة النحل والتي تضمنت ان القرآن الكريم جاء ﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾، و هي مسألة جوهرية تستوجب أن يقف عندها الانسان ليتبين موسوعية القرآن الكريم في عرض كل الاشياء من خلال الإشارة اليها بايجاز أو تلميح.

فبدأ بشرح المقصود بكلمة (تبيان) من خلال توضيح أصل (البيان) وتفريعاته اللغوية، ومعانيه التي وردت في القرآن الكريم. ثم عرّج على رأي القائلين بمحدودية القرآن وردَّ عليهم، ثم تعرض لرأي القائلين بشموليته أي: إخراجه من المفهوم الضيق الخاص الى المعنى العام الذي ننشده. وختم البحث بخلاصة معنى (تبيان كل شيء) بناءاً على الشواهد من القرآن والحديث الشريف وتخريجات أئمة الهدى عليهم السلام وأجِلَّة الصحابة رضي الله عنهم.

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

ترد في أحيان كثيرة إساءة فهم لبعض نصوص القرآن الكريم، ومن تلك ما نسمعه في كل يوم وليلة من شبهات تثار هنا وهناك، وفي الوقت نفسه لا نجد من ينبري لدفع هذه الشبهات حتى أصبحت سُنة، أو ربما يعبر عنه خطئاً بـ «صراع الحضارات» وهو ما تلهج به الألسن، أو الصراع بين الخير والشر، نرجو أن يكون صراعاً بّناءً لا هداماً يصل إلى حد التكفير وهتك الحرمات، نحن نريد صراعاً يرتقي بالانسان إلى أعلى الدرجات ويقدم خدمة للانسانية.

ومن تلك الاشكاليات ما قيل إن القرآن الكريم هو كتاب هداية وتشريع، أي (كتاب دين) وهذا ما تردد كثيراً وكأن القائلين به نسو أو تناسوا قوله تعالى ﴿ ... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[سورة النحل: ٨٩] وهذه مسألة جوهرية تستوجب البحث والتوقف عندها فكيف نطلق تسمية (موسوعات) على بعض كتب البشر ونصفها بالعمومية والكلية، وكتاب الله وتعالى يكون كتاباً خاصاً مهمته هداية الناس؟. وهل هذا النعت له يتطابق وقوله تعالى ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [سورة الحشر: ٢١] أو الآيات التي حثت على طلب العلم وتفضيل العلماء على غيرهم وهذا ما دعانا إلى تسمية البحث دراسة في الآية ٨٩ من سورة النحل».

هدفه إثبات شمولية القرآن وكليتهٌ بعدّه كتاباً شاملاً لكل العلوم إذ لم يكن كتاباً خاصاً، أما هدفنا هو قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩] وأي جهاد أعظم من بذل الجهد في فهم كتابه!. وأي سبيل أهدى إليه من القرآن ! وعَلَمَه النبي ﷺ وجعله معلماً له، جاء ذلك في قوله تعالى

﴿ ... نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ... ﴾ [سورة البقرة: ٩٧] وقوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... ﴾ [سورة النحل: ٤٤] وقوله ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ... ﴾ [سورة الجمعة: ٢].

المبحث الأول:

المقصود بكلمة تبيان:

وردت هذه الكلمة في قوله تعالى ﴿ ... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ... ﴾ [سورة النحل: ٨٩] يلحظ على أسلوب الخطاب أنّه موجه للنبي محمدﷺ إن هذا الكتاب بين كل شيء، أي وضحه، وربما يعترض معترض فيقول لماذا اخترتم هذه الكلمة من دون كلمات الآية الكريمة: نقول هن مفهومات فالمراد من المُنْزِل هو الله سبحانه، نّزل الكتاب يعني القرآن الكريم، على النبي محمدﷺ وهذه الألفاظ ما فيها جدل ولا تحتمل التأويل، كلام صريح وواضح، ليس فيه غموض، مثلما هو موجود في كلمة « تِبْيَاناً» والمراد بها؟. هل دالة على الإيضاح والتبيين، أي الشرح في ابسط الألفاظ؟.

وحتى نفهم ذلك فهماً دقيقاً، علينا أن نعرف الوسائل التي يمكن بوساطتها فهم القرآن، وإحدى هذه الوسائل هو ما روي عن النبي محمدﷺ قوله «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»[١] وعلى السياق نفسه، قال الإمام الصادقؑ «أعربوا حديثنا فإنا قوم فصحاء»[٢] إذاً إعراب القرآن احد وسائل فهمه.

وبما أن في الأمر التباس، يجب أن نعرف معنى كلمة «تبياناً» يقال: البيان هو المنطق المعرب عن ما في الضمير وقيل البيان اللغات كلها، وأسماء كل شيء[٣] وهو اسم في معنى البيان مثل التلقاء، والتبيان في معنى التبيين [٤] ومنه حديث نبيَّي الله آدم وموسىؑ «أعطاك الله التوراة فيها تبيان كل شيء» أي كشفه وإيضاحه [٥] وعلى هذا الحديث مشكل، وكأن النبي

(١) ابن أبي شيبة: المصنف ٧/ ١٥٠.
(٢) الكليني: الكافي ١/ ٥٢.
(٣) الطريحي: غريب القرآن / ٥٣٣.
(٤) الزجاج: معاني القرآن ٣/ ٨٨.
(٥) ابن الأثير: النهاية ١/ ١٧١.

موسى عليه السلام قد عاصر النبي آدم عليه السلام على الرغم من وجود الفارق الزمني بينهما، إلا في حالة لقائهما بالنبي محمد ﷺ عند الإسراء والمعراج.

والبيان هو ما بيّن به الشيء من الدلالة وغيرها، وبان الشيء بياناً اتضح، فهو بيّن، والجمع أبيناء، مثل هين وأهيناء، وأبان الشيء فهو مبين، واستبان الشيء، ظهر، وتبين ظهر، قالوا: بان واستبان وتبين وأبان وبين بمعنى واحد، ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ .. ﴾ [سورة النور: ٣٤] بكسر الياء وتشديدها، بمعنى متبينات، ومن قرأ مبينات بفتح الياء فالمعنى أن الله بينها، وفي المثل: قد بين الصبح لذي عينين أي تبين، والتبيين: الإيضاح والوضوح، وهو مصدر شاذ لأن المصادر إنما تجيء على التفعال، بفتح التاء، مثال التذكار والتكرار، ولم يجيء بالكسر إلا حرفان وهما التبيان والتلقاء، بين أي كشفه وإيضاحه، وقوله عز وجل ﴿ ... وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ .. ﴾ [سورة الطلاق: ١] أي ظاهرة متبينة، ويقال: بان الحق يبين بياناً، فهو بائن، وأبان يبين إبانة، فهو مبين، بمعناه، ومنه قوله تعالى ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [سورة الزخرف: ٢] أي البين، والبيان: الإفصاح مع ذكاء[٦].

قال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ .. ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٨] وقال ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٥] فكرر في مواضع جل ذكره: أنه مبين، فالقرآن أعلى منازل البيان[٧].

وقال الشافعي: التبيين من وجوه منها ما بين فرضه فيه، ومنها ما أنزله جملة وأمر بالاجتهاد في طلبه ودل على ما يطلب به بعلامات خلقها في عباده، دلهم بها على وجه طلب ما افترض عليهم[٨].

وهناك مشكل على كل ما قدمناه، إذا كان كل شيء مبين في القران فما هو دور النبي محمد ﷺ؟. إلا تنتفي الحاجة لوجود النبوة والإمامة؟. وقد يُثار اعتراض وهو أنّه إذا كان القرآن بهذه

(٦) ابن منظور: لسان العرب ١٣/ ٦٧.
(٧) الباقلاني: إعجاز القرآن/ ٢٧٦.
(٨) الشافعي: الأم ٧/ ٢٩٠.

العمومية أو الكلية، فهو قد يتعارض مع آيات أخر أوكلت مهمة بيانه إلى النبي محمدﷺ وهذا ما جاء في قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. ﴾ [سورة النحل: ٤٤] وقوله ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ .. ﴾ [سورة النحل: ٦٤].

وجاء في تفسير قوله تعالى ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾[سورة الرحمن: ٤] أي فصل ما بين الأشياء[٩] فكانﷺ هو المبين عن الله عز وجل أمره، وعن كتابه معاني ما خوطب به الناس، وما أراد الله وعنى فيه، وما شرع من معاني دينه وأحكامه وفرائضه وموجباته وآدابه ومندوبه وسننه التي سنها، وأحكامه التي حكم بها وآثاره التي بثها[١٠] وبهذا ما نزل للناس فوض إيضاحه إلى النبي محمدﷺ فوجب أن لا يحصل البيان إلا بقوله[١١].

وبعد أن عرضنا شيئاً من ذلك بودنا التوقف عند نقطة جوهرية في البحث وهي انه لا تعارض في آيات القرآن ولا تناقض وما حصل هو اختلاف في تفسير بعض الآيات، ومن ذلك الآية التي نحن بصددها، ومفادها أنَ القرآن فيه تبيان كل شيء، وآيات أخر مفادها إن تبيان القرآن من اختصاص النبي محمدﷺ وهذا الأمر ممكن حله في نظرة دقيقة لما ذكر من آيات لا سيما أسلوب الخطاب القرآني، فإن آية التبيان خطابها موجه للنبي محمدﷺ بمعنى أن الله انزل عليه القرآن وقد بين له فيه كل شيء، ما نريد الانتباه إليه أن القرآن مُبَيَّن للنبي محمدﷺ وليس لنا فنحن لا نفهم كلام الله سبحانه الا من خلال توضيح النبي محمدﷺ مضمونه وبهذا يكون الله هو المنزل والمبين تفصيلات القرآن للنبي محمدﷺ وهو بدوره وضحه للناس.

وما نريد قوله إن المراد من تبيان القرآن لكل شيء لا ينفي دور النبوة ولا الإمامة، وهذا ما بينه الصدوق بقوله: إن احتج محتج من أهل الإلحاد والعناد بالكتاب وأنه الحجة التي

(٩) الطريحي: غريب القرآن / ٥٣٣.
(١٠) ابن ابي حاتم: الجرح والتعديل ١/ ٢.
(١١) الفخر الرازي: المحصول ٣/ ٧٨.

يستغنى بها عن الائمة الهداة لان فيه تبياناً لكل شيء، ولقول الله عز وجل ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ.. ﴾[سورة الأنعام: ٣٨] قلنا له: أما الكتاب فهو على ما وصفت "فيه تبيان كل شيء" منه منصوص مبين، ومنه ما هو مختلف فيه، فلا بد لنا من مبين يبين ما قد اختلفنا فيه إذ لا يجوز فيه الاختلاف لقوله عز وجل ﴿ ... وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[سورة النساء: ٨٢] ولا بد للمكلفين من مبين يبين ببراهين واضحة تبهر العقول وتلزم بها الحجة، كما لم يكن فيما مضى بد من مبين لكل امة ما اختلف فيه من كتابها بعد نبيها، ولم يكن ذلك لاستغناء أهل التوراة بالتوراة وأهل الزبور بالزبور وأهل الإنجيل بـ الإنجيل، وقد أخبرنا الله عز وجل عن هذه الكتب أن فيها هدى ونوراً يحكم بها النبيون، إشارة الى قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ... ﴾[سورة المائدة: ٤٤] وأن فيها حكم ما يحتاجون إليه، ولكنه عز وجل لم يكلهم إلى علمهم بما فيها، وواتر الرسل إليهم، وأقام لكل رسول علماً ووصياً وحجة على أمته، أمرهم بطاعته والقبول منه إلى ظهور النبي الآخر لئلا تكون لهم عليه حجة[١٢].

وقد فوض الله سبحانه وتعالى إلى نبيه محمدﷺ تعيين بعض الأمور كزيادة بعض الركعات وتعيين النوافل من الصلاة والصيام ونحو ذلك إظهاراً لشرفه وكرامتهﷺ ثم لما اختار أكد ذلك بالوحي من عنده فلا فساد فيه عقلاً ولا نقلاً، بل فيه كثير من الأخبار[١٣].

فضلاً عن ذلك يفهم دوره من قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[سورة التوبة: ٣٣] وانه مبشر ومنذر كما جاء في قوله تعالى ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ

(١٢) الصدوق: كمال الدين / ٦٦٣.
(١٣) الصدوق: من لا يحضره الفقيه ٤/ ٥٤٧.

وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦ ﴾[سورة البقرة: ٢١٣] وكذلك مهمة الكتاب الحكم فيما اختلف فيه الناس، والتذكير كما جاء في قوله تعالى ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴾ [سورة الغاشية: ٢١].

المبحث الثاني:

القائلون بمحدودية القرآن

اختلفت الآراء حول الآية. فهناك من حملها على ظاهرها قاصراً المعنى على الهداية والرحمة والبشارة، وقبال ذلك أهمل الشق الأول منها وهو محل بحثنا أي قضية تبيان كل شيء، ويسجل على أصحاب هذا الرأي إنهم اتخذوا القرآن عضين أي تفاريق لقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴾[سورة الحجر: ٩١] و فعلوا بذلك ما فعل الذين نهوا عن الصلاة مستدلين بقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وقد اسقطوا منها عبارة وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ [سورة النساء: ٤٣].

وهذا هو المنهج التجزيئي، الذي نجح في دراسة الروايات التاريخية، لوجود أشياء صحيحة في الرواية الواحدة وأخرى خاطئة، فإذا رفضتها تكون رفضت شيء من الحقيقة، وإذا قبلتها تكون قبلت أشياء خاطئة، هنا يكمن التعامل معها على شكل تفاريق أي تجزأة النص تأخذ ما صح منه وتترك سواه، أما عملية تطبيقه على القرآن الكريم، فاعتقد انه غير صحيح.

والمحزن حقاً أن نسمع من بعض العلماء قولهم بمحدودية القرآن بل جعلوه كتاباً خاصاً ونفى عنه العمومية، وهذا الأمر ليس غريباً بل فعله اليهود في حجاجهم مع النبي محمدﷺ فقالوا له بالمدينة: أرأيت قوله تعالى ﴿ ...وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [سورة الإسراء: ٨٥] إيانا تريد أم قومك؟. فقال رسول اللهﷺ كلا، فقالوا: ألست تتلو فيما جاءك: أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان كل شيء ؟ فقال رسول اللهﷺ: إنها في علم الله قليل وعندكم من ذلك ما يكفيكم، فنزل قوله تعالى ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ...﴾[سورة لقمان: ٢٧] أي أن التوراة في هذا من علم الله قليل[١٤].

ومن الأدلة على المحدودية:

الدليل الأول: ذهب أصحابه إلى القول: إن القرآن الكريم كتاب خاص، يضم بين دفتيه علماً واحدًا، وبالأحرى كتاب ديني فقط وليس كتاباً موسوعياً يضم علوماً شتى، ومن ذلك ما قاله الجصاص، في معرض حديثه عن كلمة تبيان الواردة في الآية الكريمة، المراد بها تبيان كل شيء من أمور الدين بالنص والدلالة فما من حادثة جليلة ولا دقيقة إلا ولله فيها حكم قد بينه في الكتاب نصاً أو دليلاً فما بينه النبيﷺ فإنما صدر عن الكتاب[١٥] ودليله على ذلك قوله تعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[سورة الحشر: ٧].

وما رواه ابن كثير عن الاوزاعي أن تبيان الكتاب بالسنة[١٦] بمعنى انه بين كل شيء من أمور الدين حيث كان نصاً على بعضها، وأحاله على السُّنة إذ أمر بإتباع رسول اللهﷺ وطاعته[١٧] وقال آخر: يعني أن كل شيء من أحكام الدين من الأصول والفروع مبين في القرآن، ولا يوجد في ظاهر القرآن: أنه موجود فيه ولا يعلم إلا ببيان النبي محمدﷺ وبعبارة أخرى أن القرآن مشتمل لجميع المسائل الدينية مثلا الصلاة والزكاة والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . . جاء في ظاهر القرآن وتفاصيلها من أجزائها وشرائطها وموانعها وكل إلى بيان النبي محمدﷺ بقوله وفعله وتقريره[١٨].

وقال الطوسيّ: المراد من عبارة تبياناً لكل شيء أي بياناً لكل أمر مشكل، ومعنى العموم في قوله «لكل شيء» المراد به من أمور الدين: إما بالنص عليه أو الإحالة على ما يوجب العلم

(١٤) الطبري: جامع البيان ٢١/ ٩٨.
(١٥) أحكام القرآن ٣/ ٢٤٦، ينظر ابن الجوزي: زاد المسير ٤/ ٣٥٢.
(١٦) تفسير ٢/ ٦٠٣.
(١٧) النقوي: خلاصة ٣/ ١٣٣.
(١٨) الأحمدي: مكاتيب الرسول ١/ ٤٩٤.

من بيان النبيﷺ والحجج القائمين مقامه، أو إجماع الأمة أو الاستدلال، لأنّ هذه الوجوه أصول الدين وطريق موصلة إلى معرفته، وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال: الكلام لا يدل على شيء، لان كلام الحكيم يدل من وجهين: احدهما أنه دليل على المعنى نفسه الذي يحتاج إليه، والآخر أنه دليل على صحة المعنى الذي يحتاج إلى البرهان عليه، ولو لم يكن كذلك لخرج عن الحكمة وجرى مجرى اللغو الذي لا فائدة فيه[١٩].

وقال الطبرسي: أنزل القرآن بما فيه من البيان، والهداية، والرحمة، والبشارة لأهل الإيمان[٢٠] هذا الأمر يدل على المحدودية، واقتصار مضمون القران على هذه الشواهد فقط.

وهناك من قال: إن الله بين للنبي محمدﷺ كل ما يحتاج إليه هو وأمته من أمر الدين، وهذا من اللفظ العام الذي أريد به الخاص[٢١] بدليل قوله تعالى ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [سورة الأنعام: ٣٨] أي استكمال القرآن لجميع الأحكام[٢٢] وهذا الرأي مردود بالقول: ماذا عن باقي شؤون الحياة، كيف تُدار وفق أي نظام؟. إلا تكن الحياة فوضى، من دون تدبير؟. وهذا تقييد بل تحجيم لمعاني القرآن ومضامينه، ومعناه يكون كتاب الشريف الرضي، نهج البلاغة أوسع وأعمق من القرآن لأنه كتاب موسوعي لا أكون مبالغاً إذا قلت فيه كل شيء، والحال نفسه مع لامية أبي طالب بن عبد المطلب التي درست مضامينها فوجدتها تحمل مضامين شتى.

فإذا كان القرآن كتاباً دينياً، هل حُددت فيه أوقات الصلاة أو عدد ركعاتها أو السور التي تقرأ، وغيرها أو حدد أيام رمضان، أو موضع قطع يد السارق، بالتأكيد أشار إلى ذلك على نحو الإجمال تاركاً بيان ذلك للسنة المحمدية، وعلى هذا المفهوم تكون الرسائل العلمية لأهل التقليد تحوي

(١٩) التبيان ٦/ ٨١٤.
(٢٠) الطبرسي: مجمع البيان ٦/ ١٩٢.
(٢١) ابن منظور: لسان العرب ١٣/ ٦٧.
(٢٢) البحراني: الحدائق الناضرة ١/ ٣٠.

تفصيلات أكثر من القران فيما يخص المعاملات والعبادات.

الدليل الثاني: هناك من قيده، بالحلال والحرام، فعلى سبيل المثال ما نقله الطبري عن قتادة: نزل عليك يا محمد هذا القرآن بياناً لكل ما تحتاجه الناس من معرفة الحلال والحرام والثواب والعقاب، قاله مجاهد[٢٣] وذهب إلى هذا الرأي الشريف المرتضى فقال: ولم يرد تبيان عدد النجوم وعدد الإنس والجن، وإنما أراد تبيان كل شيء مما بالخلق إليه حاجة في دينهم[٢٤] قلنا إنّ القرآن فصل بعض الأشياء وترك غيرها للسنة المحمدية.

وقال ابن البراج: لا شك أن المراد من لفظة «كل شيء» الواردة في الآية، هو ما أنيط بيانه إلى أنبيائه من العلوم والمعارف، والمناهج والتعاليم التي لا يصل الفكر الإنساني إلى الصحيح منها، بلغ ما بلغ من الكمال فهذه الأمور تكفل الكتاب الكريم ببيانها وذكر خصوصياتها، وأما العلوم التي يصل إليها البشر بفكره، كالفنون المعمارية، والمعادلات الرياضية والقوانين الفيزياوية والكيماوية، فهي خارجة عن رسالة ذلك الكتاب، وليس بيانها من مهامه ووظائفه، نعم ربما يحتمل أن يكون للآية معنى أوسع، حتى يكون القرآن الكريم قابلاً لتبيان تلك المعارف والعلوم، غير أن هذا الاحتمال -على فرض صحته- لا يصح أن يكون القرآن الكريم مصدراً لهذه المعارف، حتى يرجع إليه كافة العلماء والاختصاصيون في هذه العلوم، وإنما يتيسر استخراج هذه العلوم والمعارف لمن له مقدرة علمية إلهية غيبية، حتى يتسنى له استخراج هذه الحقائق والمعارف من بطون الآيات وإشاراتها، وهو ينحصر في جماعة قليلة[٢٥].

الدليل الثالث: القرآن كتاب هداية وتشريع، قاله الطباطبائي: صفة القرآن العامة انه تبيان لكل شيء، وإذ كان

(٢٣) جامع البيان ١٤/ ٢١١، ينظر النحاس: معاني القرآن ٤/ ١٠١.

(٢٤) رسائل ٢/ ٢٢٠.

(٢٥) ابن البراج: المهذب ١/ ٩.

كتاب هداية لعامة الناس، وذلك شأنه، كان الظاهر إن المراد بكل شيء كل ما يرجع إلى أمر الهداية مما يحتاج إليه الناس في اهتدائهم من المعارف الحقيقية المتعلقة بالمبدأ والمعاد والأخلاق الفاضلة والشرائع الالهية والقصص والمواعظ فهو تبيان لذلك كله[٢٦].

وهذا ما ذهب إليه السيد شهيد المحراب محمد باقر الحكيم قدس سره الشريف بقوله: ولأن هذا هو معنى كون القرآن هداية للناس، وحينئذ فإن ما اخذ من هذه المفاهيم من القرآن نفسه يمكن أن يشكل قرينة وخلفية ذهنية لفهمه[٢٧] ويمكن أن نفهم من عبارة «كل شيء» على ضوء الهدف من نزول القرآن، فالمراد من التبيان هو التبيان الشامل لما يرتبط بهذا الهدف[٢٨] وقد يطول بنا المطاف لمعرفة الهدف من نزول القرآن لأنه ليس موضوعنا وربما يبعدنا عن أصل الموضوع.

وكذلك قال: الكلية أو العمومية هنا إذا لاحظناها بلفظها المطلق مجردة عن هدف نزول القرآن الكريم، فإنها سوف تعني كل شيء، بمعناها الواسع الشامل لكل الأشياء في الوجود وعندئذ قد يطرح هذا السؤال وهو: أننا عندما نقرأ القرآن الكريم لا نجد فيه كل شيء، أين هي علوم الطب والفيزياء، والعلوم الطبيعية الأخر، أو حتى العلوم الإنسانية كعلم التأريخ والاجتماع؟. فإن بعض أصولها وإن كان موجوداً في القرآن الكريم إلا أن كثيراً من تفصيلات هذه العلوم غير موجودة في القرآن فكيف يمكن افتراضه تبياناً لكل شيء؟. وأما إذا أخذنا هذه الآية الكريمة في ضوء الهدف القرآني فسوف نعرف لها مضموناً واقعياً وحقيقياً، وان هذه الكلية والعموم الذي استعمل فيه أداة «كل» لها مصداقية خارجية ولكن في ضوء الهدف القرآني، فالقرآن الكريم حينئذ تبيان لكل شيء، يرتبط بتحقيق ذلك الهدف الذي استهدفه في نزوله، بحيث لم يبق شيء يتعلق بتحقيق

(٢٦) الطباطبائي: الميزان ١٢/ ٣٢٤.
(٢٧) محمد باقر الحكيم: علوم القرآن / ٤١.
(٢٨) علوم القرآن / ٤٥.

ذلك الهدف لم يذكره، وأن معرفة هدف النزول تعيننا على تفسير كثير من الظواهر التي اتصف بها مثلاً ظاهرة، النزول التدريجي، والتعرض إلى بعض القضايا الشخصية المرتبطة برسول الله ﷺ وظاهرة التعرض إلى العادات والتقاليد المحدودة والجزئية في المجتمع الجاهلي، واختصاص القصة بأنبياء ما يعرف الآن بمنطقة الشرق الأوسط من دون غيرهم من الأنبياء، على فرض وجودهم تبعاً لوجود البشر في غير منطقة الشرق الأوسط، وظواهر أُخر، وحينئذ، فإن معرفة الهدف من نزوله تتدخل في تفسير هذه الظواهر وغيرها مما ورد في القرآن الكريم[٢٩].

وفي موضع أخرى قال: في هذه الآية وغيرها، وإن جاءت بأساليب ومضامين متعددة، كلها تصب في مصب واحد، هو أنّ القرآن الكريم وبحسب طبيعته يمكن أن يتفاعل معه الإنسان العادي، ويشكل حينئذ مصدر الهداية ويكون تبياناً لكل شيء، مما يدل على أمكانية فهم كثير من المضامين والمعاني والهداية والنور الموجود فيه، وبشكل مباشر، ولا يكون هذا الفهم من التفسير بالرأي حتى إذا كان من دون الاستناد إلى رواية أو حديث معين، وإنما نتيجة لجهد الإنسان الشخصي من خلال مراجعته لمجموعة المعلومات والقرائن المتوفرة عنده[٣٠].

وعندما كتبنا كتابنا «الإسلام قبل البعثة رؤية قرآنية» هناك من اعترض علينا اعتراضاً لا طائلة له، فكتب قائلاً «القرآن الكريم كتاب هداية وتشريع وليس موسوعة علمية، تضمن إشارات في بعض الجوانب العلمية التي جاء الغرض منها في سياق تعزيز الإيمان وترسيخه في النفوس ننتفع منه لهذا الغرض في كل زمان» وفي موضع آخر قال «نؤكد هنا مرة أخرى إن القرآن الكريم كتاب هداية وليس كتاب علوم أو تاريخ، يذكر الوقائع للعبرة والدروس وليس للتوثيق التاريخي، ما عدا ما يتعلق

(٢٩) محمد باقر الحكيم: علوم القرآن / ٦٧.

(٣٠) محمد باقر الحكيم: علوم القرآن/ ٢٣٩.

بالإشارات التي جاءت بشأن سيرة المصطفى ﷺ»[٣١] حسب قوله.

المبحث الثالث:

القائلون بشموليته

وهناك مَنْ قال بشمولية القرآن، أي إخراجه من المفهوم الضيق الخاص إلى المعنى العام الذي ننشده، وفي ذلك أقوال:

أولاً: من المعروف أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى علوم القرآن إلى نبيه محمد ﷺ فأقام عترته أهل بيته هذا المقام[٣٢] وكان الإمام الباقر عليه السلام أحدهم وقد وصف القرآن بقوله: القرآن هو الحق، ومحمد ﷺ لذلك مستقر، فمن اتخذ سبباً إلى سبب الله لم يقطع به الأسباب، ومن اتخذ غير ذلك سبباً مع كل كذاب فاتقوا الله، فإنّ الله قد أوضح لكم أعلام دينكم ومنار هداكم، فلا تأخذوا أمركم بالوهن ولا أديانكم هزواً، فتدحض أعمالكم وتخبطوا سبيلكم ولا تكونوا أطعتم الله ربكم، اثبتوا على القرآن الثابت[٣٣].

وقال عليه السلام أيضاً «إن الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة إلا أنزله في كتابه وبينه لرسوله ﷺ وجعل لكل شيء حداً وجعل عليه دليلاً يدل عليه وجعل على من تعدى الحد حداً»[٣٤] وهذا معناه أنزل جميع ما يحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا مجملاً ومفصلاً، محكماً ومتشابهاً[٣٥].

وهذا كلام صريح، علماً إننا في الدنيا نحتاج إلى كل شيء من العلوم الإنسانية والتطبيقية: طب، فلك، هندسة، فيزياء، كيمياء، وسائر العلوم بما فيها التكنولوجيا الحديثة التي يعمل بها الإنسان الآن، ولا يقول قائل هي من ابتكارات العصر الحديث، هذا كلام مردود بالقول: هل إن الإنسان مخترع

(٣١) ملاحظات كتبها احد الأساتذة في معرض تقويمه احد بحوث الباحث، وإبداء ملاحظاته حوله، كتبها بالحبر الأحمر.
(٣٢) الطباطبائي: تفسير ١/ ١١.
(٣٣) البرقي: المحاسن ١/ ٢٦٧.
(٣٤) الكليني: الكافي ٧/ ١٧٦.
(٣٥) المازندراني: شرح أصول الكافي ٢/ ٢٧٧.

أكثر من خالقه والعياذ بالله؟. نعم بين القرآن أمور الدين ولم يترك الدنيا بل وضع فيها كل شيء.

وكذلك عليه السلام قال «إذا حدثتكم بشيء فاسألوني عنه من كتاب الله ثم قال في بعض حديثه: إن رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن القيل والقال»[٣٦].

وجاءه رجل بمكة، فسأله عن مسائل أجابه عنها، ثم قال له الرجل: أنت الذي تزعم أنه ليس شيء من كتاب الله إلا معروف؟. قال: ليس هكذا قلت: ولكن ليس شيء من كتاب الله، إلا عليه دليل ناطق عن الله في كتابه مما لا يعلمه الناس، قال: فأنت الذي تزعم أنه ليس من كتاب الله إلا والناس يحتاجون إليه؟. قال: نعم، ولا حرف واحد، فقال الإمام عليه السلام: إن لكتاب الله ظاهراً، وباطناً، وناسخاً ومنسوخاً، ومحكماً، ومتشابهاً، وسنناً وأمثالاً وفصلاً ووصلاً وأحرفاً وتصريفاً، فمن زعم أن كتاب الله مبهم فقد هلك وأهلك[٣٧].

ثانياً: قال الإمام الصادق عليه السلام «ولدني رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا اعلم كتاب الله وفيه بدء الخلق وما هو كائن إلى يوم القيامة وفيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر الجنة وخبر النار وخبر ما كان وخبر ما هو كائن اعلم ذلك كأنما انظر إلى كفي»[٣٨] وفي رواية «والله إني لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره»[٣٩].

وقال عليه السلام أيضا: إن الله عز وجل أنزل في القرآن تبياناً لكل شيء وما ترك شيئاً يحتاج إليه العبد، حتى والله ما يستطيع عبد أن يقول: «لو كان في القرآن هذا» إلا وقد أنزله الله فيه «وكذلك قال اختار محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله فكان أطيب الناس ولادة، فبعثه الله بالحق وأنزل عليه الكتاب، فليس من شيء إلا وفي كتاب الله تبيانه.

وكذلك قال عليه السلام: ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله ولكن لا تبلغه عقول الرجال، وقال في رسالة «وأما ما سألت من القرآن

(٣٦) البرقي: المحاسن ١/ ٢٦٩.
(٣٧) البرقي: المحاسن ١/ ٢٦٨.
(٣٨) الصفار: بصائر الدرجات/ ٧١٢.
(٣٩) الكليني: الكافي ١/ ٢٢٩.

فذلك أيضاً من خطراتك المتفاوتة المختلفة، لان القرآن ليس على ما ذكرت، وكل ما سمعت فمعناه غير ما ذهبت إليه، وإنما القرآن أمثال لقوم يعلمون دون غيرهم، ولقوم يتلونه حق تلاوته، وهم الذين يؤمنون به ويعرفونه، فأما غيرهم فما أشد إشكاله عليهم وأبعده من مذاهب قلوبهم، ولذلك قال رسول الله ﷺ: ليس شيء بأبعد من قلوب الرجال من تفسير القرآن، وفي ذلك تحير الخلائق أجمعون إلا من شاء الله، وإنما أراد الله بتعميته في ذلك أن ينتهوا إلى بابه وصراطه وأن يعبدوه وينتهوا في قوله إلى طاعة القوام بكتابه والناطقين عن أمره وأن يستنطقوا ما احتاجوا إليه من ذلك عنهم لا عن أنفسهم ثم قال ﴿...وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ..﴾[سورة النساء: ٨٣] فأما غيرهم فليس يعلم ذلك أبداً ولا يوجد، وقد علمت أنه لا يستقيم أن يكون الخلق كلهم ولاة الأمر إذ لا يجدون من يأتمرون عليه، ولا من يبلغونه أمر الله ونهيه، فجعل الله الولاة خواص ليقتدى بهم من لم يخصصهم بذلك فافهم ذلك إن شاء الله، وإياك وإياك وتلاوة القرآن برأيك، فإنّ الناس غير مشتركين في علمه كاشتراكهم فيما سواه من الأمور، ولا قادرين عليه ولا على تأويله إلا من حده وبابه الذي جعله الله له فافهم إن شاء الله واطلب الأمر من مكانه تجده إن شاء الله[٤٠].

ثالثاً: قال عبد الله بن مسعود إن الله عز وجل انزل في الكتاب تبياناً لكل شيء ولكن علمنا يقصر عما بين لنا[٤١] وكذلك قال: أنزل في هذا القرآن كل علم وكل شيء قد بينه لنا[٤٢] وروي عنه قوله: من أراد العلم عليه بالقرآن فإن فيه علم الأولين[٤٣] أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن الضريس في

(٤٠) البرقي: المحاسن ١/ ٢٦٧.
(٤١) البخاري: التاريخ الكبير ٩/ ٤٤.
(٤٢) الطبري: جامع البيان ١٤/ ٢١١.
(٤٣) الطبراني: المعجم الكبير ٩/ ١٣٥.

فضائل القرآن ومحمد بن نصر في كتاب الله، والبيهقي في شعب الإيمان(٤٤).

وقال «لا تهذوا القرآن كهذّ الشعر ولا تنثروه نثر الدقل وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب(٤٥) وكذلك قال «إن هذا القرآن مأدبة الله، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئاً فليفعل، فإن أصفر البيوت من الخير البيت الذي ليس فيه من كتاب الله تعالى شيء وإن البيت الذي ليس فيه من كتاب الله شيء خرب كخراب البيت الذي لا عامر له، وإن الشيطان يخرج من البيت يسمع سورة البقرة تقرأ فيه»(٤٦) على المنصف أنْ يلحظ القول: مأدبة فالمعروف إنها تحوي أشياء من المأكل والمشرب، ولهذا جاء التشبيه في محله، وهي تسد حاجة الإنسان من ماء وغذاء، وكذلك القرآن سد حاجة الإنسان من كل شيء.

وفي رواية أخرى رواها عن رسول الله ﷺ قال «... إن هذا القرآن هو حبل الله وهو النور البين والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به ونجاء لمن تبعه لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد»(٤٧).

رابعاً: أقوال المفسرين، ومن أقوالهم ما قاله الطوسي، إن الله سبحانه وتعالى وصف كتابه أنه تبيان لكل شيء فإذا جاز تخصيص الكتاب بالسُنة وجب أن يخص بالكتاب أيضاً فلا وجه توجب كون السنة تبياناً للكتاب ومخصصاً له الا وهو بعينه يوجب كون الكتاب تبياناً له ومخصصاً فاما تخصيص الكتاب بالسنة فلا خلاف فيه بين أهل العلم وقد وقع منه أيضاً في مواضع كثيرة(٤٨) لقوله تعالى ﴿... يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ..﴾ [سورة النساء: ١١] وقال ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ ..﴾ [سورة النساء: ٧].

وكذلك قال: وحاشا أن يكون القرآن تبيانا لكل شيء ولا يكون تبياناً

(٤٤) السيوطي: الدر المنثور ٤/ ١٢٧.
(٤٥) ابن ابي شيبة: المصنف ٢/ ٤٠٣.
(٤٦) عبد الرزاق: المصنف ٣/ ٣٦٨.
(٤٧) ابن أبي شيبة: المصنف ٧/ ١٦٥.
(٤٨) الطوسي: عدة الأصول ٢/ ١٣٤.

لنفسه، وقال تعالى ﴿ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥] وقال تعالى ﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [سورة النساء: ١٧٤] وكيف يكون القرآن هدى وبينة وفرقاناً ونوراً مبيناً للناس في جميع ما يحتاجون ولا يكفيهم في احتياجهم إليه وهو اشد الاحتياج؟![٤٩].

ونقل ابن كثير عن ابن مسعود قوله: بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء، قال ابن كثير: قول ابن مسعود أعم وأشمل فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي وكل حلال وحرام وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم[٥٠].

وقال الآمدي: فإنّ مقتضاه أن يكون الكتاب مبيناً لكل ما هو من الكتاب، لكونه شيئاً[٥١] ومن عجائب هذا المعجون الملكوتي، ومن غرائب هذه الموسوعة النازلة من العالم اللاهوتي، إمكان تحمله للاحتمالات الكثيرة على وجه يصدقه الأذواق والآراء المتناقضة[٥٢].

وأنزل عليه كتاباً جعله مهيمناً على كتبه المتقدمة، ومشتملاً على ما حوته العلوم الجمة وفاضلاً عليها أن جعله تبياناً لكل شيء ولم يفرط فيه من شيء، فهدانا الله عز وجل بمحمدﷺ من الضلالة والعمى، وأنقذنا به من الجهالة والردى، وأغنانا به وبما جاء به من الكتاب المبين[٥٣].

ويصدق أن جميع العلوم والمعاني في القرآن الكريم عرفاناً حقيقياً وتصديقاً يقينياً على بصيرة لا على وجه التقليد والسماع ونحوهما إذ ما من أمر من الأمور إلا وهو مذكور فيه إما بنفسه أو بمقوماته وأسبابه ومبادئه وغاياته ولا يتمكن من فهم آيات القرآن وعجائب أسراره وما يلزمها من الأحكام والعلوم التي لا تتناهى إلا من كان

(٤٩) الطباطبائي: الميزان ١/ ١١.
(٥٠) تفسير ٢/ ٦٠٣.
(٥١) الأحكام ٢/ ٣١٩.
(٥٢) مصطفى الخميني: تفسير ٥/ ٩٤.
(٥٣) المفيد: كتاب الغيبة / ١٩.

علمه بالأشياء من هذا القبيل[٥٤].

ومن الخصائص التي يحتوي عليها الكتاب المبين والقرآن المستبين: أنه تبيان لكل شيء، فيكون تبياناً لنفسه بالأولوية القطعية، أما تبيان كل شيء فهو مما لا يدرك، ولا يعلمه إلا الله ومن أتى الله بقلب سليم، وهم أهل القرآن النازل في بيوتهم، التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسم الله، وأما تبيان نفسه فقد تصدى من السلف والخلف لمراجعة مشكلات القرآن بنفس القرآن وإلى نفسه لحل معضلاته[٥٥].

قد اشتهر بين طائفة من المفسرين: أن ما يتحدى به القرآن ليس ينحصر بالفصاحة والبلاغة، بل هي أمور كثيرة: منها: التحدي بالعلم[٥٦] والمعرفة في قوله تعالى ﴿... وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الأنعام: ٥٩] فإن الإسلام كما يعلمه ويعرفه كل من سار في متن تعليماته من كلياته التي أعطاها القرآن وجزئياته التي أرجعها إلى النبيﷺ بنحو قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ ...﴾ [سورة النساء: ١٠٥] وغير ذلك متعرض للجليل والدقيق من المعارف الالهية الفلسفية، والأخلاق الفاضلة والقوانين الدينية الفرعية من عبادات ومعاملات وسياسات واجتماعيات وكل ما يمسه فعل الإنسان وعمله، كل ذلك على أساس الفطرة وأصل التوحيد بحيث ترجع التفصيلات إلى أصل التوحيد بالتحليل، ويرجع الأصل إلى التفصيلات بالتركيب[٥٧] قال بذلك السيد الطباطبائي في هذه الآية: وقد تحدى بالعلم والمعرفة[٥٨] يعني لم يكن القرآن كلام هداية وتشريع وإنما علم ومعرفة.

قال ابن طاووس: إن الله جل ذكره انزل على نبيه محمدﷺ كتاباً بين فيه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة في قوله

(٥٤) الفيض الكاشاني: التفسير الصافي ١/ ٥٨.
(٥٥) مصطفى الخميني: تفسير ٤/ ٥١٤.
(٥٦) مصطفى الخميني: تفسير ٤/ ٥٢٥.
(٥٧) الطباطبائي: الميزان ١/ ٦٢.
(٥٨) الطباطبائي: الميزان ١/ ٦٢.

﴿ ... وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة يس: ١٢] وفي قوله ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة النمل: ٧٥].

ومن الأدلة على شمولية القرآن، كثرة المشتغلين بدراسته من مختلف العلوم، وهذا ما نقل عن أحدهم قوله: اعتنى قوم بضبط لغات القرآن وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه وعددها، وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه، وعدد سجداته والتعليم عند كل عشر آيات إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المتماثلة، من غير تعرض لمعانيه ولا تدبر لما أودع فيه فسمّوا القّراء.

ودرس النحاة المعرب منه والمبنى من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال اللازم والمتعدى ورسوم خط الكلمات وجميع ما يتعلق به حتى إن بعضهم أعرب مشكله وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

وأهتم المفسرون بألفاظه فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد ولفظاً يدل على معنيين، ولفظاً يدل على أكثر فأجروا، الأول على حكمه، وأوضحوا معنى الخفي منه، وخاضوا في ترجيح احد المحتملات ذي المعنيين أو المعاني، وأعمل كل منهم فكره وقال بما اقتضاه نظره.

وأخذ الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية فاستنبطوا منه وسمّوا هذا العلم بأصول الدين، وتأملت طائفة منهم معاني خطابه فرأت منها ما يقتضى العموم ومنها ما يقتضى الخصوص إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز، وتكلموا في التخصيص والأخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهى والنسخ، إلى غير ذلك من الاقيسة واستصحاب الحال والاستقراء وسموا هذا الفن أصول الفقه.

وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام فأسسوا أصوله

وفّرعوا فروعه وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً وسموه بعلم الفروع وبالفقه أيضاً، وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء وسموا ذلك بالتاريخ والقصص.

وتنبه آخرون الى ما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير، وذكر الموت والميعاد، والحشر والحساب، والعقاب والثواب، والجنة والنار فصولاً من المواعظ وأصولاً من الزواجر فسموا بذلك الخطباء والوعاظ.

وأخذ قوم بما في آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك من علم الفرائض واستنبطوا منها من ذكر النصف والربع والسدس والثمن حساب الفرائض، ونظر قوم إلي ما فيه من الآيات الدالة على الحكم الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبروج وغير ذلك فاستخرجوا منه علم المواقيت، ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم وحسن السياق والمبادئ والمقاطع والمخالص والتلوين في الخطاب والاطناب والإيجاز وغير ذلك فاستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع[٥٩].

وأشار إليه ابن منظور في معنى كلمة البيان قال: ومبين أن نبوة رسول الله ﷺ حق، ومبين قصص الأنبياء[٦٠] وقال ابن حزم: صح أن لا بيان إلا نص القرآن ونص كلام رسول الله ﷺ[٦١] وقيل معناه تبياناً بياناً بليغا لكل شيء[٦٢].

خامساً: أشكل الباحث على ما قاله العلماء الأجلاء، إن القرآن ما فيه تاريخ ولا جغرافية: فهو يقول لهم جازماً راجعوا كل مصادر التاريخ الإسلامي

(٥٩) محمد طاهر الكردي: تاريخ القرآن الكريم/ ١٢.
(٦٠) لسان العرب ١٣/ ٦٧.
(٦١) الأحكام ٣/ ٢٧٦.
(٦٢) الفيض الكاشاني: التفسير الصافي ٣/ ١٥٠.

لم تجدوا كتاباً واحداً يخلو من الاعتماد على القرآن الكريم، بل يكون المصدر الأساس في كل دراسة ضمن هذا المجال، فلا يُدرى ماذا يسموا ذلك؟. الذي يكتب تاريخاً إسلامياً وشواهده من القرآن الكريم، ما معنى ذلك؟. بل ما تفسيره؟. لا يقول قائل إن الباحث يقول: إن القرآن كتاب تاريخي، لا معاذ الله نحن لا نقول هذا، وإنما نقول هو كتاب جامع لكل العلوم فيه كل شيء مجملاً ولم يكن مفصلاً.

وعن قولهم أين الجغرافية فيه: نقول اقتضت مشيئة الخالق أن خلق الماء والهواء والبحار والمحيطات والسماء والأرض، وسيرها من دون تضاد ولا تضارب في أوامره ونواهيه، وقدر لكل شيء أجلاً، فقدر للشمس والكواكب تسبح في أفلاكها من دون تصادم فقال ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [سورة يس: ٤٠].

أما حركة الرياح وتسخيرها فقال ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٦٤].

وقوله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٥٧] وعلى هؤلاء أن يتدبروه جيداً ويعرفوا كيف يرسل الرياح بأمره؟. وهي تحمل الغيوم المحملة بالماء، فينزل المطر ويسقي ارضا ميتة هامدة، فتنبت ألواناً مختلفة من الثمار، وعلى المنصف أن يلحظ الألفاظ رياح وسحاب وماء وثمرات، هذه الألفاظ على ما تدل؟. الم تدل على ظواهر جغرافية تُدرس وتُدرس في الجامعات العالمية؟.

وكذلك قوله ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ

﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [سورة الحجر: ٢٢] ألا يدل ذلك على التزاوج بين النباتات، سيما النخيل وغيره، عندما يحمل الهواء حبوب اللقاح المتطايرة.

أما الطب في القرآن مصداقه قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ لَمَّا ..﴾ [سورة يونس: ٥٧] وقوله تعالى ﴿...قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ..﴾ [سورة فصلت: ٤٤] وقوله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ..﴾ [سورة الإسراء: ٨٢].

وقول النبي محمد ﷺ «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن»[٦٣] إسناده صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[٦٤].

وأخيراً لا نريد الإطالة بهذا الخصوص ونكتفي بما كتبناه في كتابنا الإسلام قبل البعثة رؤية قرآنية من شاء فليطلع عليه يجد شواهد منقولة عن النبي محمد ﷺ وأهل بيته وقد دلت دلالة واضحة على أنّ القرآن كتاب جامع لكل العلوم[٦٥].

(٦٣) ابن ماجة: سنن ٤/ ١١٤٢.

(٦٤) الحاكم: المستدرك ٤/ ٢٠٠.

مصادر البحث

القرآن الكريم.

- ابن الأثير الجزري ت ٦٠٦هـ، النهاية في غريب الحديث، تح طاهر احمد الزاوي وآخر، ط ٤ قم -١٣٦٤هـ.
- الأحمدي، علي بن حسين، مكاتيب الرسول ﷺ، ط١ دار الحديث- ١٤١٩هـ.
- الباقلاني، محمد بن الطيب، ت ٤٠٣هـ، إعجاز القرآن، تح احمد صقر، ط٣ مصر ١١١٩هـ.
- البحراني، يوسف ت ١١٨٦هـ، الحدائق الناضرة في إحكام العترة الطاهرة، تح محمد تقي الأيرواني، قم-د ت.
- البخاري، إسماعيل بن إبراهيم ت ٢٥٦هـ، التاريخ الكبير، بيروت د.ت.
- ابن البراج، القاضي عبد العزيز الطرابلسي، ت ٤٨١هـ، المهذب،

(٦٥) المحمداوي / ١٤.

تح بـ أشراف الشيخ السبحاني، قم- ١٤٠٦هـ.

- البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، ت ٢٧٤هـ، المحاسن، عنى بنشره وتصحيحه والتعليق عليه السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية د. ت.
- الحاكم النيسابوري، محمد بن محمد ت٤٠٥ هـ، المستدرك على الصحيحين، تح يوسف المرعشلي، بيروت -١٤٠٦هـ.
- ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي ت ٥٩٧هـ، زاد المسير في علم التفسير، تح محمد بن عبد الرحمن عبد الله، ط١ بيروت- ١٩٩٢م.
- ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن الرازي ت٣٢٧ هـ، الجرح والتعديل، ط١، بيروت- ١٣٧١هـ.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن احمد ت ٤٥٦هـ، الإحكام في أصول الأحكام، تح احمد شاكر، القاهرة د.ت.
- الحكيم، محمد باقر ت ٢٠٠٣م، علوم القرآن، ط٣، قم -١٤١٧هـ.
- الزجاج، إبراهيم بن محمد، ت ٣١١هـ، معاني القرآن وإعرابه، المسمى المختصر تعليق احمد فتحي عبد الرحمن، ط١ بيروت -٢٠٠٧م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، بيروت، ١٩٩٣هـ.
- الشافعي، الإمام ت ٢٠٤هـ، كتاب الأم، ط٢ بيروت -١٩٨٣م.
- ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد، ت ٢٣٥هـ، المصنف، تح سعيد محمد اللحام، ط١ دار الفكر -١٤٠٩هـ.
- الشريف المرتضى، أبو القاسم علي بن الحسين ت٤٣٦هـ، الرسائل، تح أحمد الحسيني، ط١ قم- ١٤١٠هـ.
- الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي ت٣٨١ هـ، إكمال الدين وإتمام النعمة، قم -١٣٩٥هـ، من لا يحضره الفقيه، قم -١٤١٣هـ.
- الصفار، محمد بن الحسن ت٢٩٠ هـ، بصائر الدرجات، قم -١٤٠٤هـ.

- أبن طاووس، السيد علي بن موسى الحلي ت٦٦٤ هـ، الأمان من أخطار الأسفار والأزمان، تح ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام ط١ قم -١٤٠٩ هـ.
- الطباطبائي، محمد حسين، ت ١٤٠٢هـ، الميزان في تفسير القرآن، قم د ت.
- الطبراني: سليمان بن احمد الخمي ت ٣٦٠هـ، المعجم الكبير، تح حمدي عبد الحميد، ط٢، القاهرة -د ت.
- الطبري، محمد بن جرير ت٣١٠هـ، جامع البيان في تأويل القرآن، بيروت-١٤٠٥هـ.
- الطريحي، فخر الدين، ت ١٠٨٥، تفسير غريب القرآن، تح محمد كاظم، قم -د ت.
- الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن ت٤٦٠ هـ، عدة الأصول، تح محمد مهدي نجف، مؤسسة آل البيت- د.ت.
- عبد الرزاق بن همام ت ٢١١هـ، مصنف عبد الرزاق، تح حبيب الأعظمي، المجلس العلمي د. ت.
- الفخر الرازي، محمد بن عمر ت ٦٠٦هـ، المحصول في علم أصول الفقه، تح د. طه جابر فياض، ط٢ بيروت -١٩٩٢م.
- الفيض الكاشاني، المولى محمد حسن، ت ١٠٩١هـ، تفسير الصافي، تح حسين الأعلمي، ط٢ قم -١٤١٦هـ.
- الكردي، محمد طاهر، تاريخ القرآن الكريم، ط١ جدة -١٣٦٥.
- الكليني، محمد بن يعقوب ت٣٢٩هـ، الكافي، طهران -١٣٦٥هـ.
- ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني، ت ٢٧٣هـ، السنن، تح محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت -د ت.
- المازندراني، مولى محمد صالح ت ١٠٨١هـ، شرح أصول الكافي (من دون معلومات).
- المتقي الهندي، علاء الدين بن علي ت٩٧٥ هـ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تح بكري حياني والشيخ صفوة السقا، بيروت، دت.
- محمد بن إبراهيم النعماني، ٣٨٠هـ، الغيبة، تح علي اكبر الغفاري،

طهران–د ت.

- مصطفى الخميني ت ١٣٩٨هـ، تفسير القرآن الكريم، مفتاح أحسن الخزائن الآلهية، ط١ مؤسسة العروج–١٤١٨هـ.
- أبن منظور، محمد بن مكرم ت ٧١١هـ، لسان العرب، ط١، قم–١٤٠٥هـ.
- النحاس، أبو جعفر ت ٣٣٨هـ، معاني القرآن الكريم، تح محمد علي الصابوني ط١، مكة المكرمة–١٤٠٩هـ.
- النقوي، حامد ت ١٣٠٦هـ، خلاصة عقبات الأنوار، ط١، قم–١٤٠٤هـ.